

## القدس : خيارات إستراتيجية

محمد سيد أحمد

مفكر ومكتب بالأهرام

### مقدمة

لقد أتيح لى إن الحضر - فى مدة لا تتجاوز العامين أو العام ونصف - ندوتين فى الخارج عن القدس ، أحدهما بدعوة من جهات عربية فى لندن والأخرى فى إطار اليونسكو فى باريس ، مما يعنى أن المجتمع الدولى يرى فى قضية القدس ما يلققه . والأمر الذى لفت الأنظار أن ما يؤخذ على العرب دائما هو مقاطعة أية ندوة يشارك فيها إسرائيليون . ولكن فى هاتين الندوتين كان الإسرائيليون هم من قاطعوها ، لأنهم لا يريدون مناقشة قضية القدس ، ولا يريدون السماح للأراء المعارضة داخل إسرائيل أن تناقش تلك القضية ، والتي يجب أن تبقى لنهاية عملية التفاوض ، ولا ينبغي إعطاء أوراق للأطراف العربية تقول بأن أطرافاً داخل إسرائيل قد تكون ذات آراء مخالفة فيما يتعلق بالقدس . وقد حضر بعض الإسرائيلييين الهامشيين جدا ، الذين ليس لهم تأثير ملحوظ فى رأى العام . ولكن الشئ اللافت للنظر أن إسرائيل لا تريد أن تناقش قضية القدس .

وهناك قضايا أخرى - فى نظر إسرائيل - لا تناقش فى عملية التفاوض ، وعلى رأسها بالطبع قضية حيازة إسرائيل للسلاح النووى . فبالى اليوم إسرائيل لا تعترف بأن هناك حقاً لأحد أن يناقش البعد النووى . والمطروح لدى إسرائيل أنها تعتقد أن العالم العربى (أو اعتقد أنها محقة فى ذلك) يبارك إبقاء بعد نووى لإسرائيل ، ومن هذا الوجه فهى خارج عملية التفاوض ولا تناقش . قضية القدس مماثلة ، وهى من القضايا التى لا

تناقش ، فهي تعتبر البعد الروحي للصراع تماما كما أن أسلحة إسرائيل النووية هي البعد العسكري المطلق ، وهذه قضايا لا تناقش . وحتى المناقشة حول الجولان قضية لن تأتي بأية نتائج (حتى في ظل حكومة بيريز ورايين) . هذه قضايا في ظل كل الحكومات الإسرائيلية لا تناقش . والمقصود بإرجاء قضية القدس لنهاية التفاوض هو محاولة تليين المواقف العربية حول القضايا الأخرى فيما يتعلق بالنزاع ، بحيث ترد قضية القدس إلى مجرد إجراء شكلي ، ليستعان في ذلك مثلاً بالاتحاد الأوربي وبنوعيات جديدة من صيغ السيادة لدول متعددة تتجمع في كيان واحد لاكتشاف صيغ شكلية لإعطاء الانطباع بأنهم - بشكل أو بآخر - قد لبوا شيئا - إن لبوا - في قضية القدس ولكن على أن يحتفظوا هم بالقضية للنهاية في أيديهم . والموضوع بالغ الخطورة ويجب أن نعترف أن هذه القضايا لن تحل بمجرد أن نخطب أنفسنا بخطب قوية بينما لا تكون لنا آليات من أجل مواجهة هذه المشاكل .

أريد أن أقول إن قضية القدس ليست فقط قضية أديان . إنهم على استعداد أن يقولوا إننا سوف نحترم حق المسلمين - وكذلك حق المسيحيين - في أن يصلوا إلى الأماكن المقدسة في القدس ، ولكن نحتفظ نحن بالسيادة . وحينما ننظر إلى قرار ما جرى في النفق - وقد كان ذلك قرارا سياسيا ، فإن نيتانياهو لم يستشر أحدا ، وعندما أخذ هذا القرار اعتبر ذلك قرارا سياسيا سياديا ، وعلى هذا الأساس استباح لنفسه أن يأخذ قرارا بالغ الحساسية والأهمية بالنسبة للمسلمين والمسيحيين في العالم كله باسم القرار السياسي . فالقرار السياسي السيادي شيء لا يمكن بحال من الأحوال التنازل بشأنه ، وألا يجب أن نتخذ ما جرى فيما يتعلق بفتح النفق كدليل وحجة في المستقبل ، بأن الاعتراف بالحقوق الدينية للمسلمين والمسيحيين في القدس ليس كافيا إطلاقا وأن يكون هناك اعتراف بالحقوق السياسية الفلسطينية بما يكفل الحقوق الدينية ، وأيضا إجهاض أي محاولة من قبل إسرائيل تستهدف بها عملية استخدام أفرادها بالقرار السياسي لانتهاك أي حق ديني سواء للمسيحيين أو للمسلمين .

نقطة أخرى بالغة الأهمية بالنسبة للقدس ، وهي أن هناك على سبيل المثال صيغاً تستحدث أو تبدع أو تخترع ، المقصود بها توزيع الصلاحيات البلدية ، وهناك وثيقة لمحام إنجليزى كبير ، أعتقد أنه عرض هذه الوثيقة على الجامعة العربية ، وجوهر

الوثيقة أنه يمكن إيجاد سيادة مشتركة ، من الناحية البلدية بحيث إن قطاعات من القدس يعترف بها للفلسطينيين ربما في المستقبل ، فهو يتحدث بصفته صديقاً للعرب ، وأن هذا هو الحل . وحقيقة الأمر ليست أن نجد حلولاً للمشاكل التي لا تثير مشاكل ، وإنما المشكلة أن نجد حلولاً تكفل للجانب الفلسطيني حماية حقوقه في حالة وجود خلاف سياسي، في حالة تحدى إسرائيل ، في حالة لجوء إسرائيل لتفوقها العسكري من أجل فرض قرارها ، إذا ما فرض أن كان هناك بصورة أو بأخرى في المستقبل حديث عن سيادة مشتركة .

أريد القول ، ما هي القضايا التي علينا من الآن أن نفكر فيها في سبيل أن نتجنب استخدام إسرائيل للمرحلة الأخيرة في المفاوضات لكي تملأ شروطها فيما يتعلق بالقدس بالكامل . ليس معقولاً ولا مقبولاً أنه لا يوجد لدينا تصور عن الغد إلى الآن ، وليس لدينا آلية إلى الآن لمواجهة استراتيجية هذه المشكلة عندما تطرح على مائدة المفاوضات . وأريد أن أقول إن القدس جزء من فلسطين وجزء من الأراضي المحتلة ، ولكن هناك خصوصية للقدس ، بمعنى أنها ليست قضية فلسطينية فقط ولا هي قضية عربية فقط ، إنما هي أيضاً قضية إسلامية ومسيحية وقضية تمس قطاعاً هاماً من العالم الآن ، وبهذه الصفة فهي قضية لا يجوز التصور أن إسرائيل وحدها كفيلة بأن يكون لها الكلمة الفصل فيها . وأريد أن أذكر أيضاً ظاهرة أخرى ، وهي أن القدس من نوعية القضايا التي يصعب إيجاد حل أو آلية لها . ونود التحدث عن الآلية لكونها مرتبط بالفرس ، والآلية التي نتحدث عنها الآن ليست آلية الغير وإنما هي ماذا صنعنا ، وماذا فعلنا نحن كعرب ؟

### السلام في الشرق الأوسط

أريد بداية تعريف موضوع صعب ؟ ما معنى السلام في الشرق الأوسط؟ ما معنى السلام في الصراع العربي الاسرائيلي ؟ هذا ليس موضوعاً سهلاً وتفسيره ليس سهلاً ، لأن هناك خصوصية في هذا الصراع فهو ليس كأي صراع ، للصراعات المعروفة هي صراعات بين دول متجاورة لخلافات تتعلق بالحدود أو بالمركز النسبي لهذه الدول في النظام الإقليمي أو في النظام الدولي . وليس مألوفاً أن يكون هناك صراع بينما هناك

أسباب مبررة وشرعية للتساؤل في شرعية الطرف الآخر . هذا الطرف الآخر يقول أنه كان هنا منذ ألفي سنة ، وانظروا في الحفريات ، وفي التوراة ، لقد كنت موجودا لكني غبت وطردوني إلى الخارج ، ثم رجعت ، ولكن ما هي الشرعية ؟ ما الذي يلزمني بتحمل مسئولية وأثار هذا الذي حدث لكم ؟ ما الذي تعطوه لي في المقابل فرضا في سبيل أن يكون أساسا للسلام ؟ فأى قواعد للسلام في هذا ؟ . عندما تكون القواعد ملتبسة على هذا النحو وهي قضية ليست مقررة وليست هناك شرعية تقررها . عندما تكون العملية ملتبسة بهذا الشكل لابد أن يكون داخل إسرائيل مدرستان للتفكير ، مدرسة تقول السلام مستحيل ومدرسة تقول فلنجرّب . الذي يقول السلام مستحيل يقول لكي استمر لا يوجد غير الردع ، لا يوجد غير الحرب ، لا يوجد غير التهديد بالحرب ، وهذه هي مدرسة نيتنياهو ، أنا أتواجد بالردع ، لأنه لا يوجد سلام ولا يمكن أن يكون هناك سلام لأنهم لن يعترفوا به حتى لو تظاهروا بذلك . هذا تكتيك أو موازين قوى لكن لا يوجد سلام . والمدرسة الأخرى تقول لا أضمن هذا حتى بالتفوق العسكري ، فالعالم قد تغير في عشر سنين ، فلا أرى ما الذي سيحدث بعد ذلك ، لابد أن اتخذ الحيطة وأقدم شروطاً إضافية إلى الروادع . هذه الشروط الإضافية يسميها حوافز الشرق الأوسط ، تعاون إقليمي وسوق شرق أوسطية مثلا ، ماذا يقصد بذلك ؟ . أن تكون علاقة التاجر العربي مع التاجر الإسرائيلي عمليات تعامل بين طرفين لهما مصلحة أقوى من العداء التقليدي الذي على الأرض . فهذه هي فكرة إيجاد روابط وزرع قواعد داخل الأرض العربية لحماية السلام .

فإن نحن بصدد مدرستين ، ولابد أن تكون هناك مدرستان ، وهذا ناتج من صميم القضية ، من صميم المعادلة ، صميم معادلة خالق إسرائيل . ومشكلة إسرائيل تفرز بالضرورة مدرستين ، مدرسة تسميها السلام تحاول إعمال حوافز مع الروادع ، ومدرسة أخرى تقول ليس هناك داع للحوافز ، لا يوجد غير الردع . يترتب على ذلك عناصر التباس وغموض وهشاشة بالقرار ٢٤٢ وصيغة مبادلة الأرض بالسلام لأن علينا أن نسأل أي أرض وأي سلام . كنا نسمع عن شرعية الأرض طبقا للأمم المتحدة وعن قرار التقسيم الذي استمر حتى بعد سنة ١٩٤٨ ، ثم قلنا المراجع هو القرار ٢٤٢ بعد ١٩٦٧ الذي يقول الأراضي أو بعض الأراضي ، واليوم يقول القدس بالكامل داخله . إذن أي

أرض وأى سلام . أول سلام بدأ بهدنة ثم قلنا إزالة آثار العدوان أى أن ما قبل عدوان ١٩٦٧ مشروع ، لذلك كان سلاما بدون علاقات دبلوماسية ، واليوم نقول علاقات دبلوماسية وتطبيع كامل ، أى سلام ، والكلمتان غامضتان ، كيف أقول إن السلام يساوى أرضا ، هذه أيضا مشكلة . ثم إنه حتى لو تساوى ، فأى أرض وأى سلام ؟ .

فإذا أردت أن أزيل هذا اللبس ، لابد من توضيح ، ولابد من تحديد ، لابد أن نعرف أى أرض وأى سلام . إذا كنا نتحدث عن السلام ، ويأتى نيتانياهو ويقول إنه لا يعرف ، وهذا حقه فى ضوء هذا الغموض ، يقول نيتانياهو أن - بيريز فرط ولكن أنا أستطيع أن آخذ السلام ولا أفرط فى الأرض . وهذا يضارب على شئ ويقول السلام مقابل السلام . ما معنى هذا ؟ هذا ليس كلاما إنشائيا فهو يقصد هذا ، الأمن مقابل الأمن ، وأمنهم هو أمن الأنظمة التى ليست بالضرورة أمن الشعوب .

إن القضية هى ما السلام ؟ لقد لجأنا إلى المجتمع التولى من أجل السلام ، لأنه نوع من السلام المستحيل . يستحيل السلام اعتماداً على الأطراف فقط ، فليس من الصدفة أن وجدت آلية مدريد أو ، أوسلو .. الخ ، وأن يتدخل العالم كله حتى وأن كان إلى الآن لم ينجز أى سلام . إن تدخل العالم كله والدول العظمى وأمريكا شرط ضرورى ، وليس شرطاً كافياً . ليس هناك سلام فى هذه العملية تماماً بدون تدخل العالم . والسؤال ما الذى ترتب على تدخل العالم ؟ .. ترتب عليه تجميد تناقض واحد ، تجميد وليس إلغاء ، فهذا التناقض بين دولة إسرائيل والدول العربية ، جمد ولم يسو ، فقد رُحِّل فى اتجاهين ، رُحِّل داخل إسرائيل ، ورُحِّل داخل العالم العربى ، لكن إسرائيل خلافا للعرب لديها آلية تحل بها مشاكلها .

رُحِّل داخل إسرائيل ، بدليل قتل رئيس الوزراء على يد يهودى ، وبدليل أن الوزارة التى كانت موجودة سقطت وجاءت وزارة ثانية . ليس ذلك فقط ، وإنما شن وزير إسرائيلى سابق فى حكومة العمل حملة يقول فيها إن الديمقراطية الخاصة بنا ديمقراطية غربية للغاية ، حيث أغلبية الناخبين ، يكافئون القاتل ويعاقبون أنصار الضحية . وهذه نقطة مهمة . وعلى أى الأحوال ، التناقضات داخل صفوفهم ، ولكنهم يخفونها وينجحون بفضلنا . ونحن من جانبنا ، دول الطوق لا نتكلم مع بعضنا البعض ، وأى اتفاق يعقد مع

إسرائيل يعقد على حدة ويخفى عن باقى الدول . أى أنهم يرحلون التناقضات إلينا ويحلون التناقضات عندهم ، لكنهم يعرفون كيف يسوون التناقضات فيما بينهم فترحل إلينا . والسلام يعنى ترحيل التناقض من مواجهة بين إسرائيل والعرب إلى تناقض داخل العرب . وإذا كان الموضوع بهذا الشكل ، أن السلام عبارة عن ترحيل التناقض إلى العرب ، فهل من حقنا أن نحجم عن إعمال التناقض لديهم ؟

جدير بالذكر أن المقال الذى نشر "بهيرالد تريبيون" كتيبه ويزمل . منذ بضعة أيام كان مقررا أن يلقي خطبة بمناسبة مرور عام على وفاة رابين ، فألقى الخطبة ولكن لم يعط رابين حقه . فاتصلت زوجة رابين به تليفونيا وقالت له " إننى اليوم فقط قد فهمت - من خلال حديثك كلامك المكتوب بالأمس فى "هيرالد تريبيون" وفى "نيوتايمز" - لماذا جئت ليلتها إلى المستشفى لكى ترى ماذا حدث يوم قتله ؟ كنت تريد أن تطمنن بنفسك على أنه قد مات " . هذه هى نوعية العلاقات فيما بينهم .

هل نحن نحجم عن استغلال ذلك ، سمعنا فيصل الحسينى الآن ، سمعنا المعاناة والصرخة من الداخل . سمعناه بلغة خاصة ، يستجد بنا ، ويقول سوف تدفعون الثمن ، ~~علما~~ استجد بكم سوف تدفعون الثمن . هذه القضايا مفروض أن نفكر فيها ، لأننا حينما نتكلم عن الآليات لا نتكلم لنخاطب أنفسنا ، لأنه عندما يخاطب شخص نفسه لا محاسبة ، ولكن عندما ندخل فى هذه العمليات فهناك محاسبة . إننى أعتقد وأتصور أن هذا الموضوع لابد أن يناقش قوميا ، وبصراحة أقول إن أضعف حلقة فى إسرائيل الآن هى الحلقة الداخلية . نيتانياهو قوى فى الخارج فهو يفرض شروطه على الرئيس الأمريكى الذى كان يعتقد أن نيتانياهو رهينة له قبل الانتخابات ولذلك صوت من أجل بيريز ، وجعلنا جميعاً كعرب نصوت من أجله فى شرم الشيخ كعرب ضد نيتانياهو ، وهو يعلم ذلك . واليوم نيتانياهو يقول لكلينتون أنت رهينتى لأننى فى السلطة لمدة خمس سنوات وأنت سوف تخوض الانتخابات ، ولدى اللوبى اليهودى تحكم فيه . أى أنه حتى أمريكا ليس لها صوت ، وفى ضوء هذا نحن أمام مشكلة . أننا نريد أن نكافئ ونعاقب داخل إسرائيل . أريد أن أقول ، من يحدد معنا قرار ٢٤٢ ويزيل عنه الإبهام ويتفق معنا على أن الأرض ، هى القدس لنا . ونيتانياهو قادر على أن يقول : هؤلاء ليسوا أهل سلام وأنه

يستطيع لنفسه أن يصنع ما يريد ولا يتمسك بالقرارات الدولية لأن العرب أنفسهم سيفعلون ذلك .

لذلك نريد أن نمنع عنه هذه الفرصة ، نريد أن نقول له إنه من المحتمل أن قاعدة السلام واردة ، ولكن بشروطنا ، ويكون هذا باسم الآلية ، وبطريق الترغيب والتهديد ، وبدلاً من مخاطبة أنفسنا نخاطبه هو ، ونستغل حقيقة أن الحلقة الداخلية لديه هي أضعف حلقة بدليل أن هذا الرجل منتخب بأقل من ٥١٪ من أصوات الناخبين الإسرائيليين . وللنظر لهذا الموضوع بجدية من المتوقع بالطبع دفع الثمن وهو أيضاً سيدفع الثمن . نحن سوف ندفع ثمننا لأن كثيراً من المقاطعين لو رفعت المقاطعة سوف يهرولون ، وهذه أول نقطة . وثانياً هناك دوائر مال وأصحاب أموال يتحدون الدولة ويرحبون بالمؤتمر الاقتصادي وهم يبحثون عن مبررات ليهرولوا الآن . واليوم من المقررات فى العالم العربى أن من يريد الوصول إلى واشنطن فطريقه هو تل أبيب وليس السعودية أو غيرها ، وهؤلاء هم الأهم ونرى كل يوم مثل هذا الأمر .

النقطة الثانية التى أذكرها هى المكاسب ، إنه من السهل للغاية اتخاذ مواقف إجماعية ، فنحن نأخذ الإجماع وننتقل جماعياً . ومن الصعب اتخاذ قرارات بها أخذ ورد ، ولكن ليس بها ديمقراطية ؟ . وإذا كنا سوف نستطيع مواجهة مناورات الديمقراطية الإسرائيلية ، فلا بد أن نتربى ديمقراطياً قليلاً ، وإلا لن نستطيع مواجهتهم وسوف يكسبون الجولة ، وهم سوف يستفيدون من الآليات الخاصة بهم لكى يتحكموا فىنا ويوظفونا وليس نحن الذين سوف نوظفهم .

النقطة الثالثة من الإيجابيات أيضاً ، أن التطبيع مستمر ، فلا بد أن أكسبه ضوابط ، ولا بد أن أظهره بدلاً من أن يعمل تحت الأرض ، وكل منا يلعب لعبته بطريقته الخاصة ، وكل شخص يجد نفسه بشكل أو بآخر قد تورط فيزداد تورطاً خوفاً من أن يعلن عما يفعله ، لذلك فهناك مكسب وخسارة وأنا هنا أطرح فكرة الذى هو فى طور التكوين . هذا الفكر لن يتكامل ولن يتحقق تماماً إلا بمشاركة جماعية لذلك لا بد أن نعتد ألا يكون القرار المصرى قراراً سلطوياً فقط ، وإنما يكون قراراً شعبياً ، يكون قراراً مصرياً بكل

قطاعات المجتمع المصري وآن الأوان أن يتحمل كل شخص المسؤولية ، ولا يحمل البعض هذه المسؤولية ويقول إنه غير مسئول .

فى الختام أريد أن أقول؛ القدس من الصعب أن تضيق لأن هناك شيئاً اسمه أكثر من بليون مسلم . والسؤال هو أن البليون مسلم ليس كلهم من العرب ، هناك المسلمون العرب، وهناك المسلمون غير العرب ، ولو فرط المسلمون غير العرب سوف يتولون هم المسؤولية. وأفضل لنا أن لا نفرط ، هذه الكلمة قالها جميل مطر فى مقال له ، وهذا صحيح مائة فى المائة . إنه لا يوجد مفر ، فنحن مثل طارق بن زياد لا يوجد أمامنا سوى التقدم وليس هناك رجوع إلى الخلف ، والتقدم أمامنا ، أن نتولى مسئوليتنا ، ونتولى ما واجهنا من مخاطر ، ونكون أهلاً لها ، قبل أن يشعروا غيرنا أننا لم نقم بدورنا .